الباب الأول

حـقـــائق لا أوهـــام

الفصل الأول

ليست اتهامات.. بل واقع يعلن عن نفسه

الفصل الأول

ليست اتهامات.. بل واقع يعلن عن نفسه

برزت مقولة (الهلال الشيعي) لأول مرة على الساحة العربية على يد الملك عبدالله الثاني ملك الأردن بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وبالتحديد في أثناء زيارته للولايات المتحدة في أوائل شهر ديسمبر عام ٢٠٠٤م، عندما حذر في تصريح نشرته صحيفة (واشنطن بوست) في الثامن من ديسمبر من وصول حكومة موالية لإيران إلى السلطة في بغداد تعمل بالتعاون مع طهران ودمشق لإنشاء هلال يخضع للنفوذ الشيعي، يمتد إلى لبنان، ويخل بالتوازن القائم مع السنة. وقال الملك عبدالله الثاني: إن إيران تجد مصلحتها في إقامة جمهورية إسلامية في العراق، وهي تمول أنشطة خيرية عدة في هذا البلد لتحسين صورتها، وشجعت أكثر من مليون عراقي على عبور الحدود للتصويت في الانتخابات العامة وفقًا لرغبتها. وفي تصريحات أخرى من القاهرة أكد هاني الملقي وزير الخارجية الأردني في الثاني والعشرين من ديسمبر ٢٠٠٤م أن لدى بلاده أدلة كافية تبين أن هذا الخطر قائم، وأن عروبة العراق في خطر.

وعلى الرغم من أن هذه التصريحات كانت صيحة تحذير مستغربة من ملك مثل عبدالله الثاني؛ لأنه يفهم من المقولة الرغبة في تقوية الصف السني لمقاومة المد الشيعي الإيراني، ولكن هذا ليس موجوداً على أرض الواقع، فالأردن يبذل الآن جهوداً مستميتة لمكافحة ما يسمى هناك وفي بلدان أخرى في المنطقة الإرهاب والتطرف السني، وإن صيحة التحذير جاءت في وقت لا تتسم فيه السياسة الأردنية (ولا سياسة دولة سنّية أخرى) بأي طابع ديني أو بما يمكن أن تشتم منه رائحة الانتماء الديني، بل على العكس تجرى مواجهة الدين الإسلامي أساساً.

والغريب أيضاً أن تأتي صيحة التحذير هذه في وقت يبدو فيه الغرب وبالذات أمريكا (صديقة الأردن) في حالة رضا كامل وتنسيق كبير مع الشيعة في العراق أدت إلى تسليم مقاليد الأمور في بلاد الرافدين إليهم، بعد أن أضفى تعاونهم الديني والسياسي مع الأمريكان شرعية على الاحتلال الأمريكي وثبت دعائمه.

فإذا كان الشيعة في العراق هم حتى الآن الورقة المهمة لأمريكا، فلماذا تصدر عن الأردن صديقة أمريكا هذه التحذيرات حول الهلال الشيعي الذي يعيد إلى الأذهان ما سبق أن سماه مستشار الأمن القومي الأمريكي في أواخر السبعينيات بهلال الأزمة أو ما أسمته وسائل الإعلام الأمريكية والغربية باسم الهلال الأخضر (نسبة إلى الإسلام)؟

التحذير يبدو غريباً، ويناقض الواقع، وإن كان يمكن بالطبع تفسيره سطحيًّا على أنه يأتي ضمن سلسلة التحركات الدعائية الأمريكية ضد إيران بسبب ما يشار حول سعيها لامتلاك الأسلحة الذرية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل. غير أنه يبدو هناك خلفيات أخرى لهذا التحذير[1].

فعلى المستوى الأول يتضح أن التحذير ينطوي على محاولة واضحة لدعم وترويج السياسة الأمريكية لشق العالم العربي على أسس طائفية، وبالذات على محور السنّة والشيعة. فبينما تشجع أمريكا الشيعة في العراق على انتهاز الفرصة السانحة للوصول إلى موقع السيطرة في ذلك البلد يهمها في الوقت نفسه ودعماً لمخطط الانقسامات أن تثير رد فعل مقابل يحفّز السنّة على القيام لمواجهة الشيعة والتصارع معهم. وبالطبع لن يصلح أن يأتي هذا التحميس للعرب السنة من جانب أمريكا، بل لا بد حسمًا للوضع أن يأتي من جانب دولة سنية حتى لو كانت تقوم مع غيرها من الدول السنية بشن حملة شعواء على الإسلام كله ولمصلحة أمريكا نفسها.

ومن ناحية أخرى، فإن التحذير المدفوع أو الموعز به أمريكيًّا من قيام كيان شيعي مسيطر في المنطقة له هدف آخر، بحيث يكون عاملاً من عوامل الكبح والاحتواء لأي تفكير استقلالي قد يطرأ على ذهن القيادات الشيعية العراقية يدفعها إلى خداع أمريكا والسير معها حتى الوصول إلى موقع قوة ثم الانقلاب عليها وتشكيل محور قوة مع إيران. وفي هذا الإطار يأتي التحذير نوعاً من التحزيم والتسوير لأي تفكير استقلالي شيعي قد يخرج بالتحرك الأمريكي في العراق عن أهدافه الأساسية في إضفاء شرعية على الاحتلال وتطوير أمره، وبث الفرقة في العالم العربي وفصل العراق عن العالم العربي من خلال تكريس التوجه الكردي من ناحية ثم التوجه الشيعي نحو إيران من ناحية أخرى.

ويأتي التحذير من قيام كيان شيعي كبير كذلك في إطار أو سياق آخر، وهو الرفض الأمريكي- الأوروبي الجذري لأي كيان أو دولة إسلامية كبرى تقوم

في المنطقة، وهو رفض أصيل يعلو على مجرد التحركات السياسية التكتيكية التي قد تسمح بتعاون مرحلي أو حتى تشجيع مؤقت لتلك الطائفة الإسلامية أو تلك. أما بالنسبة إلى الطوائف غير الإسلامية، فإن هذا الرفض لا يسري بطبيعة الحال كما تدل على ذلك التحركات الجارية بالنسبة إلى الأقليات المسيحية في السودان ومصر مثلاً.[٢]

عقب صيحة التحذير التي أطلقها الملك عبدالله الثاني برز استخدام تعبير (المثلث الشيعي) المقصود منه العراق وسورية ولبنان، حيث للشيعة وجود كبير في هذه المنطقة المتجاورة، وجاء المصطلح بعد الهيمنة الشيعة على الحياة السياسية في العراق، بعد عقود طويلة لم تكن لهم هذه الهيمنة والصدارة، وذلك أثار هواجس مختلفة لدى عدد من الدوائر الإقليمية والدولية، خشية تمدد الطموح الإيراني لما وراء العراق، أي إلى لبنان وسوريا، حيث تسكنهما جماعات شيعية تتمتع بعلاقات وثيقة مع طهران، فضلاً عن الحرارة المتصاعدة في صفوف شيعة دول الخليج.

ويؤكد الأمر تلك التهديدات التي أطلقها، ويطلقها كبار المسؤولين في الحكومة العراقية، ابتداءً من الحكومة الأولى المؤقتة (الرئيس غازي الياور ورئيس الوزراء إياد علاوي ووزير الدفاع حازم الشعلان والداخلية فلاح النقيب)، إلى آخر حكومة عراقية يسيطر عليها الشيعة وبرامجهم الطائفية قبل صدور هذا الكتاب.

وكان مروان المعشر وزير الخارجية الأردني السابق محقًّا في تصريحه لشبكة إن. بي. سي في ٢٧ إبريل عام ٢٠٠٣م الذي حض فيه الولايات المتحدة على ضرورة الحرص على عدم استبعاد أي فئة في المجتمع العراقي المدني؛

حتى لا تتولى الحكم سلطة دينية على غرار النموذج الإيراني المجاور. وتذكر هذه التحذيرات بوثيقة سبق أن وضعها حزب الدعوة الشيعي العراقي في بداية الثمانينيات، عندما انتصرت ثورة الخميني في إيران، أشار فيها إلى (الهلال الشيعي) الممتد من شمال أفغانستان حتى جبل عامل في جنوب لبنان.

وجاء صعود هذه الدعوة وهذا التحذير في أجواء خوف حقيقي على سنة العراق الذين تعرضوا لكل أنواع التهميش والإقصاء من الحكومات الشيعية المتعاقبة، والذين تعرضوا لأبشع أنواع التعذيب والقتل والسحل والطرد من ديارهم على يد ميليشيات الموت الشيعية المدعومة والممولة من إيران والمدربة في إيران، ويأتي أيضاً في ظل خوف السنة وانسحابهم من الانتخابات ومقاطعتها لعلمهم ما ستؤدي إليه هذه الانتخابات سلفاً[٣].

وعلى الرغم من تشكيكنا في توجه وصدق الملك عبدالله الثاني، لكن الواقع على الأرض يؤكد المخاوف من أن الهلال السياسي الشيعي يعني ما يمكن أن يؤدي إليه واقع يقوده ويخطط له الحرس الثوري والمخابرات الإيرانية الذي يعمل بكل ما أوتي من أجل تصدير الثورة الإيرانية، وتدعمه المرجعيات الشيعية الإيرانية والعراقية على أعلى مستوى، إضافة إلى التنظيمات والميليشيات العراقية التي تتعاون مع هذا المخطط وتدعمه، وتشكل له ولتطلعاته وخططه رأس جسر نحو دول عربية أخرى.

في ظل المد الشيعي بعد الانتصار النسبي لـ (حزب الله) في لبنان، وتولي الشيعة السلطة في العراق، واستمرار إيران في مشروعها النووي، وفي ظل الممارسات اليومية للسياسة الإيرانية في المنطقة، وفي ظل ممارسات وتصريحات طائفية متطرفة لقادة الشيعة في العراق، أصبح الكلام عن

(الهلال الشيعي) ليس ليًّا لأعناق الأمور وليس تجنياً على إيران وكراهية لها وليس ادعاءات لا أساس لها.

لقد حاول الباحث السعودي نواف عبيد، مدير وحدة بحث مستقلة تُدعى (المشروع السعودي لتقييم الأمن الوطني)، في دراسة تستند إلى حقائق وأرقام، تفنيد نظرية المد الشيعي في المنطقة، وأكد الباحث استحالة قيام هلال شيعي يمتد من إيران إلى البحر المتوسط، وبنى نظريته على الآتي:

بالنسبة إلى عدد السكان: عدد السنّة الإجمالي: ١,١٧ مليار نسمة (٨٤,٦ ٪ من مجموع المسلمين). ولدى ستّ دول إسلامية كبرى غالبيّة سنّية: أندونيسيا وباكستان والهند وبنجلادش وتركيا ومصر. السعودية، البلد الأغنى في العالم الإسلامي ومهد الإسلام، هي دولة سنّية محورية.

بينما عدد الشيعة الإجمالي: ٢١٣ مليون نسمة (١٥,٤٪ من مجموع المسلمين).

لدى أربع دول فقط غالبيّة شيعية: إيران وأذربيجان والعراق والبحرين. (الشيعة مجموعة كبيرة في لبنان، لكنّهم ليسوا غالبيّة مطلقة).

إيران هي القوّة الشيعية الأساسية.

تنقسم الطائفة الشيعية إلى ستّة مذاهب مختلفة: الطائفة الأساسية والأكثر تأثيراً هي الجعفرية (مدرسة الفكر الرسمية في إيران والعراق، والشيعة العرب في الخليج).

إضافة إلى ذلك، هناك مذاهب عدّة مرتبطة بالطائفة الشيعية، ولا سيّما الإسماعيليين والعلويين والزيديين.

بالنسبة إلى توزيع القوى الاقتصادية: السعودية (السنّة) وإيران (الشيعة) هما قوّتان إقليميّتان أساسيّتان، والمقارنة بينهما مفيدة.

إجمالي الناتج المحلي في السعودية أعلى من إجمالي الناتج المحلي في إيران بستّين في المئة. (والرقم الذي يعطيه المصرف المركزي عن إجمالي الناتج المحلّي الإيراني أقلّ بعشرين في المئة من الرقم الذي يعطيه صندوق النقد الدولي).

تفتقر إيران إلى القوّة الاقتصادية لتحقيق طموحاتها الإقليمية أو دعم بلدان أخرى ذات غالبيّة شيعية.

الدخل الفردي الإيراني هو من بين الأدنى في الشرق الأوسط (أقلّ بـ ٢٥٪ من الدخل الفردي السعودي).

الغالبية الساحقة من القوى الاقتصادية في العالم الإسلامي هي دول سنّية.

بالنسبة لتوزيع موارد الطاقة: السعودية هي أكبر منتج ومصدِّر للنفط في العالم.

الإنتاج الإيراني هو أقلّ من نصف الإنتاج السعودي، والصادرات الإيرانية أقلّ بأربع مرّات من الصادرات السعودية.

على الرغم من كلّ ما يقال عن (سلاح النفط) الإيراني، فليست إيران سوى رابع مصدِّرة بعد السعودية وروسيا والنروج.

بحلول منتصف ٢٠٠٧م، أصبحت الطاقة الاحتياطية السعودية موازية لكلّ الصادرات الإيرانية.

عائدات النفط السعودية أعلى بأربع مرّات من عائدات النفط الإيرانية التي هي قريبة من العائدات في بلدان الخليج الصغيرة مثل الإمارات العربية المتّحدة أو الكويت.

بالنسبة إلى القوة العسكرية: تملك إيران واحدًا من الجيوش الأقوى والأكثر قدرةً في المنطقة، لكنّه لا يزال متخلّفًا جدًا عن الجيش الإسرائيلي، القوّة العسكرية العظمى في المنطقة.

الأعتدة الحربية الإيرانية (ولا سيّما أعتدة قوّتها الجويّة) تشيخ، وبناءً عليه فاعليّتها في ساحة المعركة موضع شكّ.

من شأن حيازة إيران أسلحة نووية أن تدفع قوى إقليمية أخرى للسعي إلى امتلاك رادع نووي أيضاً. ويمكن أن تؤدّي إلى ردّ غربي قويّ.

الخلاصة: سيحصل الشيعة على مزيد من الحقوق، لكنّ "الانبعاث" الكامل غير ممكن بسبب التحدّيات الديموغرافية والاقتصادية والعسكرية.

عالميًّا، الشيعة أقلّ عدداً بمعدّل واحد على أكثر من خمسة، وفي الشرق الأوسط إنّهم أقلّية بكلّ وضوح.

اقتصاديًّا، تفتقر إيران إلى القوّة لتحقيق طموحاتها المعلَنة أو دعم الحركات الشيعية في الخارج.

في حين أنّ إيران قوّة عظمى، لا تتناسب قوّتها النفطية مع خطابها.

ستؤدّي أيّ مواجهة عسكرية بين إيران وجيرانها إلى تدخّل الولايات المتّحدة، وستدفع حيازة أسلحة نووية قوى إقليمية أخرى إلى القيام بالشيء نفسه.

لن تكون هناك قوّة مهيمنة في الشرق الأوسط إنّما ميزان قوى بين بلدَين أو ثلاثة بلدان قيادية في المنطقة[٤].

المتحمسون لتأكيد واقع ما يسمى (الهلال الشيعي) يتحدثون عن إمكانية مضافة لهذا المشروع السياسي الإيراني للتمدد في المنطقة العربية، وهي (المد الشيعي)، أو التحول نحو المذهب الشيعي، ويتحدثون عن تحول مليون سوري على سبيل المثال للمذهب الشيعي (الاثنا عشري) بفضل تشجيع حكومي وسماح واسع للنشاط الدعوي والإنساني للإيرانيين في سوريا، فضلاً عن انتشار التشيع في مناطق أخرى من العالم العربي. وسوف نتعرض لهذه القضية في فصل لاحق من هذا الكتاب، لكن يبقى هذا التحول محدوداً، فسورية على سبيل المثال بحر سُني في الأصل، وهي بلد العلماء من ابن تيمية وابن القيم إلى علمائنا المعاصرين ولا يمكن أن يتحول أهلها عن مذهبهم، فمن فضائل الصحوة الإسلامية المعاصرة أنها جددت للناس الإيمان والاهتمام بالدين، بعد غربة طارئة، وعلى الرغم من أنه من مساوئ هذه الصحوة التشنج والتعصب المذهبي، لكن هذا التعصب على ضرره يشكل ساتراً في وجه التحول من مذهب إلى آخر، والغالب أن الأرقام التي تسربت في هذا الخصوص إنما هي توظيف سياسي، وفي أسوأ الأحوال تحول مؤقت تفرضه ظروف اقتصادية أو نجاح مشروع سياسي.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذله نواف عبيد، وعلى الرغم من جاذبية ما في بحثه من أرقام، لكن هناك جوانب أخرى تجعل الأرقام صماء لا معنى

لهـا ولا قيمـة، فالدراسات والأبحـاث تتحدث عن استحالـة أن تتحمل إيران عقوبـات دوليـة إضافية لعدم تعاونهـا في الملف النووي، لكـن الواقع يؤكد أن إيـران تتحمل كل هـذه العقوبات ولا تتأثر بهـا تأثراً قويًّا، بـل إنها تحاول أن تطور أداءهـا لكي تحقق نجاحات سياسية واقتصادية نتيجة لهذه العقوبات، فإيـران لديها هـدف إستراتيجي تريد تحقيقه وهو ضـرورة امتلاك السلاح النـووي وفي سبيله تتحمـل أي شيء؛ لأنها لحظة أن تمتلكـه ستتغير معادلات كثيرة لمصلحتها.

ومـا لم يذكره نواف عبيـد أن إيران تعمل في أجواء مـن التماسك القومي الفارسـي وسط بيئة عربية فاشلة وضعيفة، ومـن ثم فهي تحصد النجاحات في البيئـة العراقية المأزومة وفي البيئة اللبنانيـة الضعيفة والمفككة وفي البيئة اليمنية الفقيرة التي تعاني الفقـر والفساد والاستبداد، والأرقام التي ذكرها الباحث السعودي يكون لها معنى في بيئة عربية قوية ومتماسكة.

لقـد تم رفض المشـروع الإيـراني لتصدير الثـورة، حينما كانـت واجهته شخصيـات كالخمينـي ورفسنجاني وخامنئي، ولكن اليـوم هناك وجه جديد و(بطـل أسطـوري) وطبعاً عربيًّـا من الممكـن أن يلقى القبـول المطلوب، إنه بالطبـع (حسن نصـرالله). إن الشيعة بوصفهم طائفـة موجودون منذ زمن بعيد في المنطقة، ولكن لم يكن لهم مشروع لتصدير الفكر وزيادة الشق والهوة الموجـودة بينهم وبين السنـة، لكن الآن، فإن دلائل تكثيـف الحملة الترويجية لتصدير المشروع بدأت تأخذ أشكالاً مختلفة وملامح عدة.

هنـاك اختراق شيعي إيراني واضح لحركة الإخـوان المسلمين والكثير من رموزهـم، والحركات المحسوبة عليهم كحركة (حماس) في فلسطين، وأصبح

التشيع في فلسطين واقعًا ملموسًا، وحدث اختراق في مصر للصحف المستقلة، وبدأ بعضها ينشر موضوعات مليئة بالقذف والإهانة في حق الصحابة وزوجات رسول الله ﷺ، متأثرين بالخطاب الشيعي التقليدي في حق كبار الصحابة والسيدة عائشة رضوان الله عليهم جميعاً. ولم تسلم الأعمال الفنية من ملامح المشروع المذكور، ففي أحد أبرز المسلسلات التلفزيونية المنتجة بالاشتراك ما بين جهات سورية وأردنية، وهو بعنوان (أبناء الرشيد) قدم المسلسل في بعض حلقاته ترويجاً واضحاً للتشيع، وذلك بتقديم شخصية (الأمين)، بعد أن أبعد ودرس في خراسان، وهو يطلع بنهم على مؤلفات الشيعة، وهو يردد فقرات مثيرة للجدل، ويدعو إلى ترجمة الكتب إلى العربية[٥].

المشروع الإيراني السياسي يغطى بعباءة التشيع، فيخدم كلاً من السياسي والديني الآخر. فالهدف وإستراتيجية الهيمنة موجود منذ تأسيس الدولة الصفوية.. وهذا هو البعد السياسي، أما البعد الديني والفكري والثقافي والمذهبي فهو التشيع.

لم يكن خافياً على أحد أن إيران في عهد الشاه كانت لها تطلعات إمبراطورية وطموحات إقليمية – ولا سيما في دول الخليج – حتى إذا جاء العهد الجديد بالخميني والثورة الإسلامية، لم يلغِ المخطط، بل أخذ مجرى آخر أطلق عليه (تصدير الثورة)، وكشف النقاب عن (خطة سرية موجهة من مجلس الثورة الثقافية الإيرانية إلى المحافظين في الولايات الإيرانية) مدة هذه الخطة خمسون عاماً، على خمس مراحل، الغاية منها تشييع أهل السنة المتبقين في إيران والدول المجاورة، وتصدير الثورة الإيرانية (انظر مجلة البيان – المنتدى الإسلامي – لندن – العدد١٢٣).

وبالطبع سارعت الجهات الإيرانية المسؤولة إلى نفي وجود مثل هذه الخطة، لكنها لم تستطع أن تنفي وقائع على الأرض، مثل النص الصريح في المادة السابعة من الدستور على أن (المذهب الجعفري دين الدولة إلى الأبد) وما استتبع ذلك أو استأنف اضطهاد أهل السنة في إيران من بلوش وأكراد وفرس وعرب، وعدم السماح لهم بحق المواطنة كبقية المواطنين بما فيهم النصارى واليهود وعبدة الأوثان. وإلى اليوم لا يوجد مسجد واحد لأهل السنة في العاصمة طهران على الرغم من المطالبات الشعبية والدولية ووفرة أهل السنة في العاصمة نفسها، حتى أعلنوا أخيراً أنهم سوف يؤدون صلاة الجمعة في الحدائق أو الساحات العامة، فاستنفرت لمواجهتهم الشرطة وقوى القمع والحرس الثوري. أما مشكلة (عربستان: الأحواز) فأخبارها تتداول على مدار الساعة، وتنقل القمع الإيراني.

هذه السياسات الإيرانية الملتوية لم تكن خافية على الحركات الإسلامية داخل إيران ولا خارجها، ونخص بالذكر الجماعة الإسلامية في باكستان (القاضي حسين والمودودي) وحزب السلامة في تركيا (أربكان وأردوغان) وتنظيمات الإخوان المسلمين في العالم العربي، لكن شعار هذه الحركات المعلن: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)، وعدم اليأس من إعادة اللحمة لجناحي الأمة المسلمة في عصر كثرت فيه الأعداء والمخططات الأجنبية، والحاجة الماسة شرعًا وعقلاً وسياسة إلى توحيد الصفوف ونبذ الخلافات والمعارك البينية.

لكن السنوات التي شهدت احتلال أفغانستان وإسقاط حكومتها بالقوة، ثم التعريج على العراق بغزو عسكري آخر لم يكتفِ بإسقاط الحكومة، بل ألغى

الجيش العراقي ومؤسسات الدولة كلها وهدم البنية التحتية، وأخيرًا الفتنة الطائفية (شيعة - سنة) في لبنان، هذه التطورات الفاقعة أعادت ما يعتمل تحت الأرض وبين طبقات المداراة إلى العلن، فالافتضاح فالتلويح بالمواجهات الساخنة من طنجة إلى جاكارتا.

في شهر يوليو / تموز عام ٢٠٠٦م، الذي شهد العدوان الإسرائيلي على لبنان الشقيق بعد خطف جنديين إسرائيليين، وانزلاق (حزب الله) من خط المواجهة مع الكيان الصهيوني جنوبًا إلى الانخراط في إشكالات الداخل اللبناني شمالاً، وتبني الإملاءات الإيرانية التي تأخذ فيما تأخذ منحى طائفيًّا، تزامن ذلك مع سياسات الحكومة العراقية الطائفية في استئصال أهل السنة والعرب بصرف النظر عن اشتراكهم في العمل المسلح، وسكوت أمين عام (حزب الله) عن ممارسات الشيعة ضد أهل السنة في العراق على الرغم من المطالبات والنداءات التي وجهتها الحركات الإسلامية العربية وغيرها التي ساندت الحزب بصفته (مقاوماً للعدو).. إلى أمين عام الحزب، وذلك من أجل التدخل أو التوسط أو إبداء الرأي على الأقل، ولكن الأمين العام سكت وكأنه لم يسمع شيئاً؛ لأنه مجرد إحدى واجهات مشروع الهلال الشيعي.

في هذه اللحظة التاريخية التي توجه فيها أمين عام (حزب الله) بخطابه يوم احتلاله وحزبه وسط العاصمة بيروت، وتغليبه المنطق الطائفي على ما سواه، بلغ السيل الزبى، وبدأ الخط البياني في انكشاف المخفي من المخطط الإيراني للنفوذ والهيمنة، لا لأنه لم يكن موجودًا من قبل، بل لأنه بات يشكل خطراً حقيقيًّا لم يعد بالوسع السكوت عنه[٦].

الهوامش:

(١) د. محمد يحيي، الهلال الشيعي، وكالة الأخبار الإسلامية، دون تاريخ.

(٢) المرجع السابق.

(٣) محمد أبو الفضل، الهلال الشيعي بين الحقيقة والوهم، دورية مختارات إيرانية، العدد ٥٤ يناير ٢٠٠٥م.

(٤) جريدة النهار اللبنانية، ٢٠٠٦/١٢/٤م.

(٥) حسين شبكشي، المشروع الإيراني المريب، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، ٢٠٠٦/١٠/٢٤م.

(٦) محمد الحسناوي، المخطط الإيراني للنفوذ والهيمنة، موقع إخوان سوريا، دون تاريخ.

الفصل الثاني

مشروع توسع قومي فارسي

الفصل الثاني

مشروع توسع قومي فارسي

الحلم الإمبراطوري الفارسي موجود دائمًا في عقول الإيرانيين، قبل الإسلام وبعده، وكانت النزعة القومية الفارسية هي المسيطرة دائماً، وتوارت بجوارها الهوية الإسلامية ورباط الأمة الإسلامية وفلسفة الأخوة الإسلامية.

وإذا كنا لا نعترض على التاريخ الفارسي قبل الإسلام، فإن القرون التي كانت فيها إيران دولة سنية داخل الأمة المسلمة لم يحدث فيها شيء، لكن الأمور تغيرت بالكامل منذ بداية القرن العاشر الهجري ولغاية اليوم.

ففي بداية ذلك التاريخ (٩٠٧هـ - ١٥٠١م) نشأت في إيران دولة قائمة على أُسُس عقديّة تُضمِر العداوة لكل مَن هو عربي ومسلم سُنِّي، وتطمح لإعادة الإمبراطورية الفارسية الكسروية البائدة. وقد بقي حلم إعادة تلك الإمبراطورية المندثرة هدفاً إستراتيجيًّا ثابتًّا لدى جميع الأنظمة التي أعقبت العهد الصفوي. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، خاضت إيران حروبًا وصراعات عدة ضد الدولة العثمانية التي كانت تُمثِّل آنذاك دولة الخلافة الإسلامية السُّنِّية، وقد خاضت حروبها تلك مدعومة من قِبَل الصليبيين الذين وجدوا

في الدولة الصفوية ضالتهم المنشودة؛ لإضعاف الدولة العثمانية ووَقْفِ زحفها نحو أوروبا التي كانت على وشك الانهيار والدخول في الإسلام.

ولهذه الغاية فقط أوكلت الحكومة البريطانية مهمة بناء جيش نظامي وإنشاء مصنع للسلاح في مدينة أصفهان عاصمة الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس الأول (حكم من ٩٨٩ هـ - ١٠٣٨هـ) إلى الأخوين (أنتوني ورابرت شرلي) ووضعت تحت إمرتهما ٢٥ ضابطًا من الجيش البريطاني؛ لتنظيم العلاقات والتعاون بين الدولة الصفوية والدول الأوروبية؛ لمحاربة الدولة العثمانية. وقد انتقل هذا التعاون بين الغرب والدولة الصفوية إلى الحكومات الإيرانية المتعاقبة، وهي: الأفشارية، القاجارية، والبهلوية، وقد بلغ هذا التعاون أَوْجَهُ في زمن الحكم البهلوي (١٩٢٦م - ١٩٧٩م) حيث تحولت فيه إيران إلى قاعدة غربية في المنطقة، وأصبحت مصدر حروب وتهديد لجيرانها والمنطقة عامة قبل قيام الكيان الصهيوني.

ومكافأة لدورها المساند للغرب، فقد دفعت الدول الاستعمارية إيران لضم إمارة الأحواز العربية، وسمحت لها أيضًا باحتلال الجزر الإماراتية الثلاثة (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى) وذلك بهدف تقويتها للقيام بحفظ المصالح الغربية على أحسن وجه. وعند قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، كانت إيران من أوائل الدول التي اعترفت بهذا الكيان وَمدَّته بالنفط والغاز، وسمحت لليهود الإيرانيين بالهجرة إلى الكيان؛ لتقديم الخبرات والتطوع في جيش الاحتلال[1].

وشكَّل قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م حدثاً كبيراً ومهمًّا في المنطقة؛ حيث تزامنت تلك الثورة مع حدوث تطورات إقليمية ودولية عدة كان من

أبرزهـا اشتعـال الحرب الأهليـة في لبنان، والغـزو السوفييتـي لأفغانستان، وتنامي المـد الإسلامي في المنطقة، وأحداث كثيرة أخـرى إلى جانب القضية الفلسطينية التي تُشكِّل الحدث المحوري لجميع القضايا في المنطقة.

وقد وفَّرت تلك الأحـداث الفرصة لقيادة الثورة الإيرانية للاستفادة منها واتخـاذ بعضها وسيلـة لترويج أفكارهـا. وكانت بداية التحـرك الإيراني في العراق الذي رأى فيه الإيرانيون البوابة التي يمكن الولوج منها لتحقيق هدف نشر أفكار الثورة؛ وذلك بحكم الجوار الجغرافي مع العراق وتركيبته الطائفية التي تضم نسبة كبيرة من المقلِّدين والتابعين للمرجعيات الدينية الإيرانية في كل مـن النجف وقُم، إضافـة إلى عوامل عدة أخرى، جميعهـا كانت سببًا في اختيار العراق منطلقًـا لتصدير الثورة الإيرانية نحو المنطقة العربية لتحقيق غايتهـا في التمـدد والهيمنـة. وكانت باكـورة مشروعات الثـورة الإيرانية في العـراق تحريض المرجعيات الدينية في النجف وكربلاء ضد السلطة العراقية وإنشـاء تنظيمات طائفية موالية لها لإسقاط نظام الحكم العراقي، التي بات أغلبها اليوم أداة طيِّعة في يد قوات الاحتلال ومطية لتثبيت المشروع الأمريكي في المنطقة.

إن إستراتيجيـة الثورة الإيرانية قامت علـى اعتبار أن قلب منطقة الشرق الأوسـط هو العراق ودول الخليج العربي، وأن الهيمنة على هذا الإقليم سوف تساعـد علـى سقوط الأطـراف بسهولة في القبضـة الإيرانية؛ ولهـذا أرادت طهران تطويق دول الخليج والعراق بمحور (سوري، لبناني، فلسطيني) ولهذا عمـدت إلى التحرك في لبنان الـذي كان يعيش حربًا طائفية كان الشيعة فيها الأضعف سياسيًّا وعسكريًّا، وقد وفَّر هذا الأمر الفرصة لإيران للقيام بتشكيل

(حزب الله) ليكون ذراعاً إيرانية، ليس في لبنان وحسب، بل في عموم المنطقة، وهذا ما حصل بالفعل؛ حيث استُخدم الحزب ومازال يُستخدَم عصا إيرانية غليظة في المنطقة. وقد حاولت إيران استنساخ «حزب الله» في كثير من هذه البُلدان ومنها الخليجية تحديدًا، ولكن تلك الأحزاب المستنسَخة لم تستطع أن تحقق لإيران ما حققه لها (حزب الله) في لبنان؛ فقد وُئد ما سُمِّي (حزب الله الحجاز) على الرغم من قيامه بعمليات إرهابية عدة في المملكة العربية السعودية، ووُئد نظيره الكويتي بعد قيامه بعمليات إرهابية مماثلة في الكويت والسعودية. ووحده (حزب الله) البحريني الذي بقي يتنفس حتى الآن وإن كان بشكل بطيء؛ حيث يقوم بين مدة وأخرى، وكلما طلبت منه إيران ارتكاب بعض الجرائم؛ لإحداث القلاقل؛ وذلك للضغط على الحكومة البحرينية وبعض الدول الخليجية[٢].

لم يكن الحلم الفارسي الإمبراطوري موجودًا في عقل الشاه فقط، ولكنه موجود أيضًا الآن ومستمر في عقول الإيرانيين بعد الثورة، لكن الفرق أن الحلم الشاهنشاهي اصطدم على حدوده بدولة كبرى هي الاتحاد السوفييتي، وكانت المنطقة العربية متماسكة إلى حد ما، إضافة إلى وجود ثلاث دول قوية يحسب لها حساب في المنطقة، وهي تركيا ومصر وإسرائيل.. وكان الحلم الفارسي يصطدم بهذه الدول، أما الآن فقد تغير كل ذلك ما فتح شهية إيران لإحياء الحلم القديم.

التوجه الإيراني إسلامي في المظهر، لكنه قومي فارسي في الجوهر، وهو الأمر الذي ظهر بجلاء في سلوك الحكومات الإيرانية المتعاقبة تجاه سنة إيران، وهو سلوك قمعي عدواني عنصري، إضافة إلى جملة السلوك الإيراني

في العراق، ابتداءً من التعاون مع المحتل الأمريكي وإصدار المرجعيات للفتاوى التي تحرم المقاومة، إلى الدعم الكامل للشيعة وأحزابهم وميليشياتهم في جرائمهم الطائفية ضد السنة، كما تأكد هذا التوجه قبل ذلك في أفغانستان، من خلال التحالف مع الأمريكان ضد (طالبان) السنية.

لقد تبين للجميع أن الثورة الإيرانية نجحت في تأجيج مشاعر العداء بين السنة والشيعة على مستوى العالم الإسلامي، وما أعلن عنه العلامة يوسف القرضاوي خير كاشف لهذا الوجه الطائفي، كما سنتعرض له لاحقًا.

المشروع الإيراني الحالي يتكامل، وينسجم مع المشروع الصفوي إبان عهد الشاه إسماعيل الصفوي، فقد كان لهذا المشروع آنذاك محاولات للسيطرة على المنطقة الخليجية والعراق أيضًا، لكن الدولة العثمانية حافظت على الهوية السنية لدول المنطقة في تلك الحقبة، فيما تعاونت الدولة الصفوية مع كل من كان يهدد أمن المنطقة كالبرتغاليين والإنجليز.

إيران الآن توثق علاقاتها الدولية مع كل الدول الكبرى في سبيل تحقيق أهدافها في المنطقة، من خلال الادعاء أن إيران تسعى إلى الوقوف أمام مشروع غربي ساعٍ إلى السيطرة على المنطقة والإضرار بهويتها الإسلامية، مع الأسف تم خداع الكثيرين من السُنّة بذلك، فالحقيقة أن إيران تسعى إلى حشد الدعم الشعبي الإيراني والإسلامي عبر خطابات دينية، وعقد تحالفات مع جماعات شيعية، وكذلك سنية في دول المنطقة، خصوصًا في لبنان والعراق وأفغانستان والأراضي الفلسطينية المحتلة، وبعض دول الخليج، من أجل دعم مشروع الهلال السياسي الشيعي الإيراني.

وإذا كانت السياسة الإيرانية تعمل على إظهار عجز الموقف العربي في مواجهة الأزمات الإقليمية، ولا تتردد في دعم الجماعات المناوئة لبعض الحكومات العربية، واستغلالها لتحقيق مكاسب تتعلق بمصالحها، فإن ما سهل لها ذلك هو انهزامية الأنظمة العربية وانبطاحها أمام الصهاينة والأمريكان[٣].

هناك صفحات مطوية عن معاملة إيران للعرب، وعن نظرتها إليهم حتى إن كانوا شيعة (اثنا عشرية) وهناك حقائق تاريخية يجهلها أبناء الأمة الإسلامية عن هذه القضية، ونحن ننقل كلام الشيعة العراقيين العرب أنفسهم:

دعاهم الإعلام الإيراني إلى الالتحاق بالجمهورية الإسلامية والقتال في صفها ضد أبناء وطنهم وأهلهم وعشيرتهم لبوا النداء، وخرجوا للفداء وقتل منهم من قتل، وعندما توقفت الحرب عام ١٩٨٨م قيل لهم: اخرجوا من بلادنا، فقد انتهى دوركم يا أغبياء! لم يصدقوا في البداية وظنوها مزحة سخيفة أو كذبة سمجة. فهل يعقل أن تطلب منهم الجمهورية التي تسمي نفسها بالإسلامية ذلك؟ هل يعقل، وهم قدموا أرواحهم فداءً لها؟ هل يعقل وهم تركوا أوطانهم من أجلها؟ هل يعقل وهي الجمهورية الإسلامية التي ينص دستورها على المذهب (الاثنا عشري) وهم (اثنا عشرية)؟! وماذا يقولون لأهلهم في العراق؟ بل أكبر مشكلة هي أين يذهبون، وقد تركوا وطنهم الأصلي العراق من أجل عيون إيران وشعارات إيران؟!

ويا شماتة النظام العراقي فيهم وفرحته الكبيرة وسعادته الغامرة حين يسمع بما جرى لهم، وكانوا كلما تذكروا مقدار سعادة نظام صدام حسين حين يسمع بما يجري لهم في إيران كانوا أحرص على الصبر والكتمان.

وظلوا يتحملون ويكتمون أكثر من عشر سنوات حتى بلغ السيل الزبى وبرح الخفاء وظهر كل شيء على الملأ عام ١٩٩٩م.

(العراقيون في إيران: إلى أين المفر؟) .. تحت هذا العنوان نشرت مجلة «الوسط» في عددها رقم «٤٠٤» بتاريخ ٢٥/١٠/١٩٩٩م تقريرًا مهمًّا ومفصلاً ننقل بعض ما جاء فيه دون زيادة أو نقصان وبلا تعليق.

إن العراقيين المهاجرين إلى الجمهورية الإسلامية نحو نصف مليون نسمة ليس لهم حديث سوى المضايقات التي تطالهم باعتبارهم (غرباء وأجانب وطفيليين) لحملهم على المغادرة قبل الشروع مخطط نقلهم إلى معسكرات ومخيمات.

والواقع أن الحكومة الإيرانية لم تطبق معهم القانون، لا المحلي الذي شدد عليه خاتمي، ولا الدولي الداعي إلى رعاية حقوق اللاجئين الأجانب، ومنها حق توفير فرص الحياة المناسبة وحق العمل وامتلاك جواز السفر ومنح الجنسية الإيرانية بعد مضي خمس سنوات على الإقامة في هذا البلد.

ولحل مشكلة الإقامة ابتدعت وزارة الداخلية الإيرانية فكرة (الكارت الأخضر) وهو بالطبع ليس مثل الـ (Green Card) الأمريكي المعروف، ويلزم حامله بالسكن في المدينة التي صدر منها، وعندما ينتقل إلى قم يساق إلى معسكر قرب الحدود إذا لم يسلم للعراق. وإن (الكارت) لا يسمح لصاحبه بفتح حساب في البنوك، ولا تسجل لحامله أي عقود زواج وغيرها.

وإذا كان الرئيس الإيراني أطلق شعاره التاريخي الداعي إلى حوار الحضارات، واعتبرت الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م عاماً لهذا الحوار القائم على

التعايش وقبول الآخر، فإن صحيفة (بدر) - لسان حال قوات بدر المعارضة والقريبة من الولاء العقديّ لإيران - دعت خاتمي وحكومته إلى تجربة (حوار الحضارات) بين الشيعة العراقيين والإيرانيين قبل الولوج في حوار أممي بين شعوب وديانات وحضارات مختلفة.

وقد تكررت الرسائل من علماء الحوزة الدينية العراقية للمرشد علي خامنئي، فيما اختار المثقفون الرئيس خاتمي؛ لأنهم يرونه المسؤول المباشر عما يشهده إخوانهم من مضايقات. وبعث خمسون من الكتاب العراقيين رسالة إلى خاتمي في شأن السياسة الجديدة التي تنتهجها إيران إزاء المهاجرين العراقيين، وذكروه بما يختزنه الشعب العراقي من رصيد حضاري عريق، وما يكتنزه من مقدسات، وبما يتحلى به من قيم، وما يتوافر عليه في الأصل من ثروات وعناصر قادرة على أن تؤدي دورًا حضاريًّا مميزًا في المنطقة وفي العالم.

ويردد اللاجئون العراقيون أن إيران لم تمنح اللاجئ العراقي شيئًا من حقوق اللجوء التي أقرها القانون الدولي الذي وقعت على معاهداته، وعلى الرغم من ذلك، فإن العراقي بقي على مدى عقدين يمنح هذه الدولة العذر بعد العذر، مع أنه يرى أن إخوانه اللاجئين إلى دول أوروبا وأمريكا وأستراليا ينالون حقوقهم كاملة.

ويذكر هؤلاء في بياناتهم التي صارت تنتقد الحكومة علنًا، خاتمي بأنهم قدموا فلذات أكبادهم من أجل إيران شهداء ومعوقين ومفقودين، وقاتلوا أبناء وطنهم وفيهم الإخوة والأقارب والجيران.

ظنوا أن رسائلهم إلى خامنئي وخاتمي ستعيد هذه الجمهورية إلى الصواب، وتجعلها تقلع عن هذه المعاملة التي تتناقض مع أبسط حقوق الحيوان فضلاً عن الإنسان، وما هي إلا شهور قليلة حتى جاءهم ما لم يكن لهم في الحسبان ولا خطر لهم على بال!

حيث قام مجلس الشورى الإيراني (البرلمان) بإلزام الحكومة بالتخلص منهم حتى ربيع ٢٠٠١م وخرج الخبر، وانتشر وتطورت القضية، وعندها اكتشفت المعارضة الشيعية العراقية أن إيران ليست جمهورية إسلامية، بل ولا جمهورية شيعية (اثنا عشرية) بل هي جمهورية فارسية عنصرية مدعومة بشعارات وطنية ومعززة بآفاق ضيقة.

وبدأت الصحف العراقية التي تصدر عن المعارضة العراقية الشيعية تنتقد الممارسات الإيرانية علناً وتذكرها بما قدمت لها من تضحيات على حساب شعبها وأهلها وعشيرتها!، بل قد تم تأسيس منظمة باسم (منظمة الدفاع عن حقوق العراقيين في المهجر!)[٤].

وفي ١٩٩٩/١٢/٦م وفي العدد رقم (٤١٠) نشرت صحيفة (الوسط) تقريرًا آخر يحكي ما تعرض له العراقيون الشيعة داخل الجمهورية التي تسمي نفسها إسلامية، قالت فيه:

ألزم البرلمان الحكومة حتى ربيع عام ٢٠٠١م بطرد العمالة الأجنبية بذريعة محاولة القضاء على البطالة.

وأثار قرار البرلمان وقرار آخر يقضي بتشكيل مجلس تنفيذي لإنهاء الوجود الأجنبي في إيران، حفيظة المعارضة العراقية الشيعية التي قاتلت ضد بلادها إلى جانب إيران في الحرب العراقية الإيرانية.

واعتبرت أسبوعية (الجهاد) الناطقة باسم حزب (الدعوة الإسلامية) (أكبر فصيل شيعي معارض) أن (ما يجري من مضايقات قانونية) لا يأتي استجابة وحلاً لمشكلة اقتصادية أو أمنية كما يعبر بعض المسؤولين، بل هو نتاج لتجانس الاختراق الأمني مع الخلفيات السيكولوجية مدعومة بشعارات وطنية ومعززة بآفاق ضيقة.

واعتبرت أسبوعية (الجهاد) الناطقة باسم حزب الدعوة، وهي تنتقد برامج الحكومة والبرلمان تجاه اللاجئين (أن وصول محاربة اللاجئين والتضييق عليهم إلى تشريع القوانين ليس مؤامرة اختراقية للجمهورية الإسلامية فحسب، بل هو ترشح طبيعي لمجموعة من الثقافات والسلوكيات القديمة المتأصلة التي لم تستطع الثورة الإسلامية التي أطلقها الإمام الخميني في إيران اجتثاثها من الجذور. .).

وللرد على هذه الإجراءات في محاولة تبدو يائسة لوقفها أعلن عدد من الشخصيات والمفكرين والمثقفين العراقيين في إيران وخارجها عن تأسيس منظمة باسم (منظمة الدفاع عن حقوق العراقيين في المهجر).

وفي البيان التأسيسي للمنظمة التي شددت على أنها (منظمة غير سياسية تدافع عن حقوق العراقيين في إطار شرعة الإسلام وشرعة الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والقانون الدولي وقوانين البلدان التي يقطنها العراقيون: (إن العراقيين اختاروا الجمهورية الإسلامية للانطلاق لتأسيس هذه المنظمة، على ضوء الظروف غير الطبيعية التي يعيشونها والإجراءات القاسية التي يتعرضون لها، وترمي إلى إيجاد فجوة بينهم وبين الشعب الإيراني المسلم).

وقاتل معظم العراقيين الذين هاجروا إلى إيران تلبية لنداء الخميني ضد بلادهم إلى جانب إيران في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، خصوصًا (فيلق

بدر) الذي يضم آلافًا عدة من الأسرى السابقين، لكنهم يسمون اليوم (الغرباء والضيوف الطفيليين)، كما قال حسن حبيبي النائب الأول للرئيس الإيراني.

قاتلوا معها وبعد نهاية الحرب اعتبرتهم (غرباء وأجانب وطفيليين)! منحوها مدة عقدين من الزمان العذر بعد العذر، لكن بلغ السيل الزبى، فخرجت الشكاوى تترى!! بعثوا بالرسائل إلى المسؤولين وذكروهم بما قدموه لهذه الدولة من شهداء ومعوقين ومفقودين، وذكروها بأنهم قاتلوا أبناء وطنهم من أجلها، فجاءهم الجواب من البرلمان بإلزام الحكومة بالتخلص منهم حتى ربيع ٢٠٠١م. عاشوا ظروفًا غير طبيعية، وتعرضوا لإجراءات قاسية في الجمهورية التي صدقوا يومًا أنها إسلامية لا فرق عندها بين عراقي وإيراني!! ثم كانت الصدمة القاسية عندما اكتشفوا أنها فارسية.

ونستمع إلى أربعة من الشيعة العراقيين الذين أجرت معهم صحيفة الحياة في عددها رقم ١٤٠٥٥ الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٩/٨م مقابلة كشفوا فيها كل شيء.

الشهادة الأولى يرويها القيادي البارز في حزب الدعوة (موفق الربيعي) الذي كان هاربًا ومعارضًا ومقيمًا في إيران وبريطانيا، ثم تولى منصب مستشار الأمن القومي العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق - تحدث عن أحوال الشيعة العراقيين العرب في إيران، وذكر ما شاهده بعينه وهو شيعي (اثنا عشري) يقول:

زرت إيران والتقيت المسؤولين الإيرانيين، وناقشتهم في أحوال العراقيين والإجراءات التعسفية اللا إنسانية المتخذة ضدهم .. فظروف هؤلاء العراقيين محزنة جدًا، وتبعث على الأسف، خصوصًا أننا نعول على أصدقائنا الإيرانيين أن يحتضنوا هؤلاء الضحايا، ولكنهم بدلاً من ذلك زادوا في مأساتهم، بل تعاملوا معهم بوصفهم أعداء.

لقد تحدثت مع مجموعات منهم حينما زرت مخيماتهم أخيرًا، وحكوا لي صورة مؤلمة جدًا لتعامل السلطات الإيرانية معهم، حيث جردوا من الحقوق الإنسانية كافة، لمجرد أنهم عراقيون، وهذه في حقيقة الأمر نزعة غريبة لمستها شخصيًّا في إيران.

ممنوع عليهم العمل؛ لأن الحكومة الإيرانية أصدرت قرارات نقلتها وسائل الإعلام، تتوجه لأصحاب الأعمال بعدم تشغيل العراقيين بعقد عمل، ومن يخالف ذلك تتخذ ضده إجراءات قانونية، لذلك امتنع أرباب العمل عن استقبال العراقيين، وكذلك الحال بالنسبة إلى السكن، فقد أحيط الجميع علمًا بأن من يُسكن عراقيًّا في بيته يُعرض نفسه لأشد العقوبات. بيد أن أقسى هذه الإجراءات هي منع العراقيين من الزواج بالإيرانيات، ومن سبق له أن تزوج بإيرانية فسوف يعرض نفسه إلى المساءلة القانونية. إن هذه القضية تتعارض أيضاً مع الشريعة الإسلامية.

البطاقة التي كانت تمنح للشيعة العراقيين من قبل السلطات الإيرانية من دون تاريخ ومكتوب عليها (هذه الوثيقة ليس لها أي اعتبار قانوني) وبالإيرانية (اعتبار نادري)، وذلك حتى تتجنب مساءلة أي منظمة إنسانية دولية، فالمنظمات الدولية متعارفة على أن من حصل على بطاقة، وأمضى أربع سنوات متواصلة في البلد الذي يلجأ إليه يحق له الحصول على الوضع القانوني.

بدأت وسائل الإعلام، وبخاصة وزير الثقافة والإرشاد مهاجراني يطرح التوجهات بشكل جديد وغريب عن المنهج الذي يفترض أن يطبع سياسة الجمهورية الإسلامية تجاه اللاجئين العراقيين، ففي مقال نشره مهاجراني في إحدى الصحف الإيرانية قال: «نحن نمنع زواج العراقي بالإيرانية؛ لأننا

لا نريد أن يختلط الدم الإيراني، بدماء أخرى، ولا نريد أن تختلط الثقافة الفارسية بثقافات أخرى». هذه النزعة الغريبة ربما تجعلنا ندرك تركيز السيد محمد خاتمي في خطاباته وأحاديثه ومؤتمراته على البعد القومي الفارسي.

حتى أولئك الذين يشتغلون في مؤسسات الدولة الإيرانية من أصحاب الخبرات مثل الأطباء والمهندسين والموظفين الحكوميين والإذاعيين ومقدمي البرامج العربية في التلفزيون والإذاعات والصحف أصبحوا الآن بلا عمل بعد أن صدر قانون صرف العراقيين من العمل، ووضعوا جائزة لمن يخبر السلطات الإيرانية عن أي عراقي يعمل في أي وظيفة حكومية أو مدنية.

اشتدت معاناة العراقيين الشيعة في إيران، فقررت الذهاب للسفير الإيراني في بريطانيا لعله يخاطب حكومته، فتخفف الوطأة، وتزيل الغمة عن العراقيين، ولا سيما والكل شيعة، أخبرت السفير أن وضع العراقيين في إيران سيء للغاية، وقلت له أيضاً: نحن شيعة مسلمون، وأنتم شيعة مسلمون، وليس بيننا مشكلة أو عداء، بل كلانا لديه مشكلة مع النظام العراقي، وقد وقفنا معكم، فلماذا تعاملوننا وتعاملون اللاجئين في إيران بهذه الصورة الغريبة، فإن لم تحلوا المشكلة فإننا سوف نتحرك، وكتبنا رسائل إلى السيد خاتمي ورفسنجاني، ولكننا لم نتسلم أي رد منهما، لذلك سنلجأ إلى طرق أخرى ونعلن اعتصامًا ضد الحكومة الإيرانية. أجابني السفير الإيراني قائلاً: (لدينا «مجاهدي خلق» أيضًا، وهؤلاء اعتصموا أكثر من عشرين مرة هنا أمام السفارة وكنا نمر عليهم ونبصق في وجوههم) .. بهذه العبارة فهمت أنه سوف يبصق على من يتجرأ أن يعتصم من العراقيين لمساعدة أشقائهم في إيران، وكان الأجدر به أن يتذكر أن هؤلاء كانوا أول من ساند الثورة الإيرانية.. فأي منطق دبلوماسي أو إنساني يتحدث به سفير إيران في بريطانيا؟

الشهادة الثانية يرويها السيد حسين الصدر أحد علماء الدين الشيعة البارزين يقول فيها:

لقد طرحت موضوع اللاجئين العراقيين في إيران على المسؤولين الإيرانيين أكثر من مرة في زيارتي إلى إيران، وقد التقيت الكثير من هؤلاء اللاجئين، واستوعبت مشكلاتهم، وعند لقائي مع السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية في ولايته الأولى طرحت عليه معاناة العراقيين والإجراءات التي تتخذ في إيران للتضييق عليهم، وقد نقلت إليه صورة الواقع المؤلم لهؤلاء اللاجئين، وطلبت أن ترفع القيود عنهم وأن يحصلوا على حقوقهم، وبعد ذلك قال لي خاتمي: هل هذا رأيك؟ قلت: نعم، قال: الأفضل أن يكون هناك رأي جماعي لعلماء الدين العراقيين الشيعة وأن يرفع إلينا بصورة رسمية، نحن لا نستطيع أن نتجاهل ذلك. وفعلاً ما إن عدت إلى لندن حتى قدمنا مذكرة وقعها علماء الدين يطالبون فيها بإعطاء الحقوق للاجئين العراقيين. مضت السنوات وها نحن نعود من جديد لنواجه المشكلة نفسها التي لم تحل، ومن جديد نقدم مذكرة أخرى باسم العلماء والشخصيات العراقية المعروفة، والآن نحن في انتظار ما سيقوم به الجانب الإيراني.

الشهادة الثالثة يرويها قارئ شيعي عادي يقول فيها لصحيفة الحياة:

عشت نحو عشر سنوات في إيران، وغادرت إلى لندن مضطرًا بعد أن تركت هناك زوجتي الإيرانية وأطفالي، إن حياة العراقيين هناك مأساوية، كل شيء ممنوع عليهم. تزوجت بصورة سرية؛ لأن المحاكم الإيرانية لا تسمح بزواج الإيرانية من العراقي. وأتممت عقد الزواج عند عالم دين، وبقيت

مشرداً، فأنا مدرس، زاولت مهنة التدريس في العراق سنوات، ولكنني في إيران التي هربت إليها بعد إطلاق سراحي من السجن حاولت أن أعمل لأعيل عائلتي بالحد الأدنى من المعيشة، وأينما أذهب كنت أواجه بالرد المباشر، ممنوع، وأخيراً قررت أن أبدأ طريقة أخرى، فتحولت إلى بائع متجول أدور في الطرقات والأزقة، ومع ذلك، فإن رجال الأمن يطاردوني، ولم يتركوا لي أي فرصة للمعيشة، وحين لملمت نفسي للسفر مع عائلتي احتجزوا أطفالي وزوجتي وتركوني وحدي أغادر ودمغوا جواز سفري بألا أعود إلى إيران مرة أخرى، وها أنذا في انتظار عائلتي على مدى عشر سنوات مضت منذ وصولي إلى بريطانيا، ابني أصبح عمره الآن عشرين عاماً ولم أَرَه منذ ذلك الحين، كل من يحاول أن يمارس حياته الطبيعية يواجه بإجراءات أقل ما فيها أنها تتعارض، وما ينقله الخطاب السياسي الإيراني لتوجهات إنسانية جديدة، هذا هراء، الناس هناك يعانون واقعاً مرًّا وقاسياً، نحن العراقيين أكثر الخاسرين من هذه الإجراءات، وعليه أطالب المنظمات الدولية بالتحقيق في هذه المشكلة وإنقاذ الضحايا من الوضع الحالي.

الشهادة الرابعة يرويها الصحفي الشيعي العراقي مهدي السعيد، فيقول:

عدد المخيمات التي يعيش فيها العراقيون في الوقت الراهن تبلغ أكثر من ١٥ مخيمًا، تفتقر إلى المستلزمات الصحية، أكثرها قريب من المناطق الحدودية، ويبلغ عدد العراقيين في إيران حاليًا أكثر من ٢١٣ ألف شخص، بحسب الإحصاءات الإيرانية، في حين كان عددهم يصل إلى نصف مليون قبل سنوات مضت، ولكن هذا العدد تقلص بعد صدور قرار البرلمان الإيراني

العام الماضي القاضي بالسماح للحكومة بطرد اللاجئين الذين ليست لديهم إجازة عمل، وهبط عدد العراقيين آنذاك من ٥٠٠ ألف، وهكذا نتيجة الإجراءات الإيرانية المتواصلة ضد العراقيين، وصل العدد أخيرًا إلى نحو ٢٠٠ ألف، وهؤلاء لولا صعوبة خروجهم لعدم توافر الجوازات لديهم، ولأنهم معدمون لا يملكون حتى أجرة السفر، فضلاً عن عدم وجود مجال لاستقبالهم من أي دولة أخرى، لكانوا غادروا إيران منذ زمن بعيد[٥].

الهوامش:

(١) صباح الموسوي، التمدد الإيراني في الوطن العربي وأخطاره المحدقة بنا، موقع إيلاف، ١٣أغسطس ٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ممدوح عثمان، الأبعاد التوسعية والطائفية في المشروع الإيراني، موقع لواء الشريعة، ٦ - ٥ - ٢٠٠٩م.

(٤) أبو زيد بن عبد القوي، إيران تكره العرب وتطردهم حتى لو كانوا شيعة جعفرية، موقع صحيفة أخبار اليوم اليمنية، ٣و ٥ و ٧ مارس - آذار ٢٠٠٩م.

(٥) المرجع السابق